



أُرْخى علينا بسدهوله قبل أيام يَوْمٌ كان فرقاناً في العصر الحديث ففيه فتح سوق الجنة وعليه زاد طلَّابُها ومنه تسابق عُشاق الحرية والكرامة، يَوْمٌ غداً كابوساً لكل طاغوت وظالم، لكسره جدار الوهم، وتحطيمه أسوار الخوف، وفتحه باباً للعزَّة، عوداً للوراء وتمثيلاً بالتاريخ لعبرة مستفقة منه وحتى نقرأ جيداً ولا نجازف بتكرار أخطائه.

أسرد إطلالة السيدة اعتماد أم الأمراء والأميرة المدللة من شرفة قصرها الإشبيلي عندما رأت -من بعيد- نسوةً يعملن في الزراعة ويختزن بالوحش والطين بأقدامهن فأعجبها منظرهن، وأرادت تجربته، فأستأذنت زوجها ملك إشبيلية الشاعر العاشق المعتمد بن عبَّاد - الذي اشتَقَ أحرف اسمه من اسمها لفطر حبه لها - في أن تخرج إلى ظاهر إشبيلية لتتمتع بالخوض في الطين مع بناتها..! فمنعته رسوم السلطنة وهبيتها من أن يأذن لها.

نعود لساحات الهمات وهي تصدح عاليةً قد بُحَثَ حناجر ثوارها وتعبت أكتافهم وشابت مفارقهم وعارضتهم السنون بزيادة جرعة العمر في وجوه المُصطفين لترى الطفل تحسِّبه شيئاً من هول الحِمل، وثقل الموقف.

نظر البعض من شرفة تلفازه على ثورة الياسمين وثورة مصر فأعجبه عبر الحرية وأراد أن يجرِّب عبقها وهو المكبوب المظلوم والمكتوي من نار التجربة القديمة، ولحب الثورة لأبنائها وخوفها عليهم وعلمها ببطش ظلام العصر، أرادت أن تُدرج الأمر لهم وتُبسطه حتى يعرفوا يوم الطين ويقدروا له قدره.

كانت اعتماد لازالت تنتظر الإنذن، غير أنه تعود أن لا يرفض لها طلباً، فمن فرط شغفه بها، أصدر مرسوماً إلى كل عطار في إشبيلية بأن يسوق كل ما لديه من عطر ومسك وأعواد طيب إلى قصر الملك بثمنٍ يحلم به كل تاجر، فتهافت التجار إليه، كتهافت العطشى لورود الماء وكحنان المُقلَّة لقدمه ولدها.

حنَّت الساحات العامة لزوارها ورواد المظاهرات وأشتاقت اللافتات لخطاطها والورود والأرز لرشها، وكانت المظاهرات هي التعبير السلمي الأول الرافض لهيمنة نظام القمع والإجرام لاحتكار حق الكلمة والقلم، وتحدياً صارخاً بوجه أعتى وأحرق

نظام طائفي وأمني عرفته الأمم، وقفـت والجـمـوعـ مـصـطـفـةـ مـرـدـدـةـ شـعـارـاتـ كـُـتـبـتـ فـيـماـ بـعـدـ بـمـدـادـ منـ دـمـ وـبـرـاعـ منـ لـحـ وـكـانـتـ تـكـلـفـتـهاـ باـهـظـةـ جـداـ،ـ تـزـينـتـ بـثـوـبـ الثـورـةـ وـرـفـعـتـ رـاـيـتـهاـ الـوحـيدـةـ آـنـذـاكـ،ـ وـبـدـأـتـ تـجـوـبـ المـدـنـ وـالـقـرـىـ وـالـحـواـضـرـ وـالـبـوـاـدـ وـالـمـدـارـسـ وـالـجـامـعـاتـ وـكـانـتـ شـرـارـتـهاـ مـنـ الـمـسـاجـدـ مـهـلـلـةـ مـكـبـرـةـ وـمـعـلـلـةـ سـبـبـهاـ وـمـوـحـدـةـ غـايـتهاـ.

فـأـمـرـ ذـاكـ الزـوجـ الـمـُـتـيـمـ الخـدـمـ بـعـجـنـ الـمـسـكـ وـالـأـعـوـادـ بـالـعـطـورـ فـيـ باـحـةـ قـصـرـهـ الـواسـعـةـ،ـ فـكـانـتـ أـشـبـهـ بـالـطـيـنـ وـالـوـحلـ إـلـاـ أـنـ مـاءـ عـطـرـ ذـوـ رـائـحةـ نـفـاذـةـ.

بينما تنهـيـأـ اـعـتمـادـ لـلـنـزـولـ،ـ نـرـدـ عـلـىـ تـسـاؤـلـ الـمـراـقبـ الـذـيـ يـقـولـ فـيـهـ،ـ ماـ جـدـوـيـ الـمـظـاهـرـاتـ بـعـدـ خـمـسـ سـنـينـ؟ـ

أـعـجـبـنيـ كـلـامـ قـائـمـ فـيـ جـيـشـ الشـامـ عـنـدـمـ اـخـتـصـرـ التـعرـيفـ بـهـ وـقـالـ:ـ هـيـ الـأـصـلـ وـنـحنـ فـرعـ مـنـهـ،ـ هـذـاـ هـوـ تـواـضـعـ الـبـنـدقـيـةـ للـحـنـجـرـةـ وـالـبـيـانـ لـلـافـتـةـ وـالـخـنـدقـ لـلـسـاحـةـ.

لـلـمـظـاهـرـاتـ فـضـلـ عـلـىـ كـلـ مـنـ دـبـ عـلـىـ وـجـهـ الـمـحرـرـ،ـ فـبـعـدـ اللـهـ كـانـتـ سـبـبـاـ فـيـ خـرـوجـ السـجـنـاءـ الـذـينـ هـمـ قـادـةـ كـثـيرـ مـنـ الـتـنـظـيمـاتـ وـكـانـتـ سـبـبـاـ فـيـ تـوـصـيـلـ رسـالـاتـنـاـ لـلـعـالـمـ أـجـمـعـ مـنـ عـرـبـ وـعـجـمـ،ـ وـكـانـتـ سـبـبـاـ فـيـ عـودـةـ الـقـيـمـ الـمـجـتمـعـيـةـ الـتـيـ كـانـتـ فـيـ شـبـهـ اـنـدـادـ زـمـنـ الـبـعـثـ،ـ وـكـانـتـ سـبـبـاـ فـيـ عـودـةـ النـاسـ لـسـلـيمـ فـطـرـتـهـ،ـ وـتـوـعـيـةـ الـأـمـةـ لـمـعـرـكـتـهـ الـفـاـصـلـةـ الـتـيـ خـاصـتـهـ بـنـفـسـهـاـ أـوـلـاـ وـلـاتـزالـ.

كـانـتـ مـنـبـعـ كـلـ سـخـاءـ مـنـ دـمـ وـمـالـ،ـ حـشـدتـ أـعـدـادـاـ لـاـ يـمـكـنـ لـأـيـ تـنـظـيمـ مـهـمـاـ بـلـغـ أـنـ يـجـمـعـ عـشـرـهـاـ،ـ فـلـوـ اـجـتـمـعـتـ كـلـ الـتـنـظـيمـاتـ السـوـرـيـةـ لـاـ يـصـلـ عـدـدـهـاـ لـعـشـرـ مـتـظـاهـرـيـ سـاحـاتـ حـمـاـةـ وـدـيرـ الزـوـرـ فـقـطـ،ـ يـكـفـيـ أـنـ تـنـادـيـ فـيـ أـيـ حـارـةـ (ـيـلـعـنـ رـوـحـكـ يـاـ حـافـظـ)ـ سـتـجـدـ الـأـلـافـ يـنـسـلـوـنـ إـلـيـكـ مـرـدـدـيـنـ هـتـافـتـهـمـ رـافـعـيـنـ شـعـارـتـهـمـ (ـالـمـوـتـ وـلـاـ الـمـذـلـةـ).

أـخـبـرـنـيـ مـنـ زـارـ الصـيـنـ أـنـ بـعـضـ الـشـرـكـاتـ عـنـدـهـاـ تـرـدـدـ الشـعـارـ الصـبـاحـيـ وـتـحـفيـزـ الـمـوـظـفـينـ،ـ تـسـاءـلـتـ فـيـ حـيـرـةـ مـنـ أـمـرـيـ ماـ فـائـدـةـ ذـلـكـ؟ـ!

عـلـمـتـ بـعـدـهـاـ أـنـهـمـ بـهـاـ يـضـبـطـونـ بـوـصـلـةـ الـاتـجـاهـ وـتـوـحـيـدـ الـجـهـودـ بـيـنـ صـاحـبـ الـشـرـكـةـ وـالـمـوـظـفـ،ـ كـمـ أـنـهـ حـشـدـ وـتـبـيـئـةـ يـوـمـيـةـ كـمـ الـعـسـكـرـيـةـ،ـ فـالـمـشـارـيـعـ لـاـ تـؤـمـنـ فـيـ بـقـائـهـاـ عـلـىـ أـسـاسـيـاتـهـاـ مـنـ الـانـحـرـافـ،ـ إـذـ لـاـ بـدـ مـنـ تـقـيـيـمـ وـتـصـوـيـبـ كـلـ فـتـرـةـ فـلـاـ يـمـكـنـ لـسـهـمـ اـنـطـلـقـ أـنـ يـسـتـمـرـ بـنـفـسـ الـسـوـيـةـ،ـ فـلـاـ بـدـ مـنـ تـغـيـيـرـ قـنـاعـاتـ وـتـبـدـيلـ اـجـتـهـادـاتـ وـتـبـنـيـ آـرـاءـ جـديـدةـ.

وـلـابـدـ مـنـ إـلـاشـارـةـ هـنـاـ لـبـعـضـ أـجـهـزةـ الـإـسـتـقـبـالـ عـنـدـ الـبـعـضـ حـيـثـ إـنـهـاـ مـشـوـشـةـ لـاـ تـلـقـطـ الـذـبـنـيـاتـ الـمـوجـةـ لـلـفـكـرـ الـمـرـادـ تـوـصـيـلـهـاـ الـتـيـ نـوـضـحـ فـيـهـاـ أـسـاسـ الـفـكـرـ،ـ إـنـ هـنـاكـ نـظـرـةـ خـاطـئـةـ عـنـدـ أـكـثـرـ إـلـاسـلـامـيـيـنـ وـخـلـطـ عـنـدـ الـجـهـادـيـيـنـ مـنـهـمـ خـاصـةـ فـيـ الـنـظـرـ وـالـمـوقـفـ مـنـ الـسـلـمـيـةـ كـتـكـيـكـ صـرـاعـ وـأـسـلـوبـ قـوـةـ جـديـدـ مـُـتـبـعـ فـيـ ثـوـرـاتـ الـرـبـيعـ الـعـرـبـيـ وـبـيـنـ مـنـ يـتـبـنـاهـاـ كـمـذـهـبـ دـيـنـيـ أوـ فـكـرـيـ،ـ وـمـنـ يـقـرـأـ (ـتـشـيـ غـيـفارـاـ _ وـجـيـنـ شـارـبـ)ـ يـفـهـمـ أـنـنـاـ نـتـكـلـمـ عـنـ شـيـءـ أـخـرـ غـيـرـ سـلـمـيـةـ (ـغـانـدـيـ _ وـجـوـدـتـ سـعـيدـ)،ـ وـهـيـ الـآنـ شـكـلـ مـنـ أـشـكـالـ الـحـشـدـ وـالـتـبـيـئـةـ وـاستـيـعـابـ وـتـوـظـيـفـ طـاقـاتـ مـجـتمـعـيـةـ مـسـانـدـةـ لـلـعـسـكـرـةـ وـالـسـيـاسـةـ،ـ وـأـمـوـاجـ تـجيـيشـ الـحـاضـنـةـ الـشـعـبـيـةـ وـتـفـاعـلـهـاـ مـعـ الـحـرـاكـ،ـ فـخـرـوجـ الـمـظـاهـرـاتـ هـوـ زـيـادـةـ التـحـامـ وـمـشارـكـةـ مـعـ أـهـلـ الـجـهـاتـ حـتـىـ لـاـ يـعـزـلـ الـمـجـاهـدـوـنـ أـمـامـ شـعـوبـ دـوـلـ الـعـالـمـ.

وـأـقـولـ شـعـوبـ لـأـنـ رـأـيـ شـعـوبـ الـدـوـلـ الـعـالـمـيـةـ الـكـبـرـيـ لـهـ تـأـثـيرـ كـبـيرـ فـيـ تـغـيـرـ سـيـاسـاتـ الـثـلـاثـةـ الـحـاـكـمـةـ فـيـ بـلـادـهـمـ،ـ وـبـالـتـالـيـ تـغـيـرـ الـقـارـلـ مـصـلـحـةـ الـشـعـبـ الـسـوـرـيـ الـمـظـلـومـ ضـدـ هـذـاـ النـظـامـ الـفـاشـيـ،ـ وـهـذـاـ مـكـسـبـ سـيـاسـيـ كـبـيرـ قـدـ لـاـ يـتـبـهـ إـلـيـهـ كـثـيرـ مـنـ الـنـاسـ.

ـ فـقـوهـ ثـورـةـ الشـامـ كـانـتـ وـلـازـلتـ فـيـ قـوـةـ شـعـبـيـتـهـاـ وـالـتـحـامـ أـبـنـائـهـاـ،ـ وـلـاـ تـوـجـدـ صـورـةـ تـدـلـ عـلـىـ هـذـهـ الـشـعـبـيـةـ كـالـمـظـاهـرـاتـ.ـ فـمـحاـوـلـةـ اـسـتـهـجـانـهـاـ أـوـ التـقـلـيلـ مـنـهـاـ هـوـ فـيـ الـحـقـيـقـةـ ضـرـبـ لـلـحـاضـنـةـ الـشـعـبـيـةـ وـعـزـلـهـاـ عـنـ الـمـجـاهـدـيـنـ وـهـذـاـ يـصـبـ فـيـ مـصـلـحـةـ أـعـدـاءـ الـثـورـةـ،ـ فـلـيـتـنـيـهـ بـعـضـ الـمـشـكـكـيـنـ مـنـ خـارـجـ الـحـدـودـ الـذـيـنـ يـقـومـونـ بـالـتـحـريـشـ عـلـىـ الـمـظـاهـرـاتـ بـحـجـةـ أـنـهـاـ لـمـ تـعدـ مـجـدـيـةـ.

أن يكونوا أداة لتنفيذ خطط أعداء الثورة من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

كما يستفاد من عودة المظاهرات وعودة الروح للثورة أن الشعب هو الذي يحمي الفصائل وليس العكس كما يظن البعض، وأي فصيل تخلى عنه حاضنته الشعبية لأي سبب مصيره الزوال. هنا نزلت اعتماد وبناتها ليخضن في الطين المعطر جيئة وذهاباً...

وكان يوماً مشهوداً... وتسرّب الخبر وقال نسوة في المدينة - بعد أن بلغ بيوت العامة قبل الخاصة بإشبيلية والأندلس-: عن مكان اعتماد في قلب المعتمد.

فحب الثورة هو الانتساب لها والقتال ضمن مبادئها وتبني رايتها وأسسها التي انطلقت منها لتحصيل الحرية والكرامة، والابتعاد عن صبغها بلون واحد، وتنعير الناس عليها، وتأليب الأحلاف ضدها.

إن من يخجل من كلمة ثورة وتأثير ويترفع عن ميادين التظاهر، وينسى التأثر الأول الأعزل يومها بتظاهره كان بمثابة العملية الاستشهادية في يومنا هذا، فلا تخسوا الناس أشياءهم، ستكتب شهادتهم ويسألون.

ولم يكن إسراف المعتمد ليمر دون عقوبة إلهية فقد جاء (ابن تاشفين) والمرابطون، وأندوا الأندلس من القشتاليين وملوك الطوائف أيضاً، ثم أخذوا المعتمد واعتمد إلى الإقامة الجبرية في ذلٍ و هوان حتى، قيل أخبار ابن عياد تذيب الأكباد. فها هي أخبار الثورة الشامية كانت ضد طاغية غدت ضد عدة دول وأشكالٍ من الطغاة وطارت أخبارها في أرجاء المعمورة بين مؤيدٍ لها وخاذل، لم تستسع اعتماد حياة الفاقه والذل، وقتها رأت (الطين الحقيقي) وحصل أن تجادلت مع زوجها الملك الأسير المعتمد يوماً وتشاجنا فقالت له منذ عرفتك ما رأيت خيراً قط، فقال لها بدھشة وألم: ولا حتى يوم الطين...؟! فخجلت هنا وسكتت عن الكلام المباح.

وبعد حياة كثرة حولها الجدالات ماتت اعتماد ومات المعتمد، ومن عجائب الأيام أنه نُودي على جنازته (الصلوة على الغريب) فسبحان من لا يزول ملكه.

في نهاية حياته مات معه انتقامه للإمارة ووَدَع معه طائفته المحصورة المعزولة عن الأمة المنفلقة عن الشعب المكافح. ويُحكى في الأسطورة أن فلاحاً فرنسياً يدعى نيكولاوس شوفين استحثته وطبيته للتطوع في جيش نابليون بونابرت من أجل الدفاع عن بلاده، وبعد إصابته في المعركة، تم منحه راتباً تقاعدياً لم يكن كافياً لتغطية حاجاته. ورغم ذلك، وبعد الإطاحة بنابليون استمر شوفين بولائه وتعصبه للأعمى للشخص الذي لم يعتن به حق العناية. ومن اسمه، تطور مصطلح الشوفينية، وبات يستخدم في وصف كل توجه عنصري مغالٍ ازدرائي للآخرين وأي شوفينية تنظيمية مقابل الانتقام الثوري مرفوضة، "من تنكر لثورته لن يذكر يوم الطين الثوري وعقب مسك دمها"